ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١١ —

وصلت طلائع من كتائب المؤتمر الطبي فى صباح اليوم . فليكن من هواي أن أتسمّع أحاديث الأندية فى المساء

* * *

لم يصل إلى فندق تايجرس غير طبيب واحد . وقد قضيت معه لحظة ففهمت أنه خالى الذهن من الغرض الصحيح لعقد المؤتمر الطبي فى بغداد . وليس هـذا بمستغرب من مثله ، لأنه بولونى لا يعرف ما يساور شعراء العرب من المعضلات الوجدانية . وقد حاولت أن أفهمه أن المؤتمر إنما يعقد فى بغداد لمعاونتى على مداواة ليلى فلم يفهم إلا أن اسم ليلى قد يكون اسماً لمرض من الأمراض . وما علينا إذا لم يفهم البولونيون !

* * *

لم يعرفنى أحد من أطباء فلسطين وسورية ولبنان ، فالذين قرأوا (مدامع العشاق) يحسبونى فتى لا يجاوز الثلاثين ، والذين قرأوا (الأخلاق عند الغزالى) يحسبونني شيخاً يصافح الثمانين ؛ وهم جميعاً يعتقدون أنى مطربش لا مُسَدَّر ، فدخولى بينهم بالسدارة يوهمهم حتما أنى من فتيان العراق

وكذلك استطعت أن أسرق أحاديثهم فى فندق استوريا من حيث لا يشعرون

تحدث طبيب منهم قال : ما كنت أحسب الزمن يسمح بمثل هذا الجنون ؛ وما كنت أظن أن الجمعية الطبية المصرية تدعو أطباء العرب لعقد مؤتمر طبي يختبر حال ليلى المريضة فى العراق . ولولا لجاجة زوجتى ما حضرت ، فهى ترى التخلف عن هذا المؤتمر تحدّياً للجنس اللطيف

واعترضه آخر فقال : هى فرصة طيبة لمشاهدة ليلى . وهى أيضاً مواساة للطبيب المصرى الشهير زكى مبارك الذى هجر وطنه وأهله فى سبيل الوجدان ، ومن الواجب أن يكون بين أبناء العرب أطباء يتخصصون فى طب القلوب

وقال ثالث : الذى يهمنى هو مشاهدة ليلى ثم دعوتها لشرب كأس أو كأسين فى فندق الفرات

وقد ضج الحاضرون بالضحك والقهقهة وكادوا يجمعون على طرافة هذا الإسفاف

* * *

كنت خليقاً بالحزن على ما صار إليه أدب الناس ، ولـكنى حزنت على نفسى . حزنت حتى غلبنى الدمع

فهؤلاء الذين يتصورون أن العافية لا تطلب لليلى إلا لتصلح لمعاقرة الـكأس ، هؤلاء تقدموا وتأخرت ؛ هؤلاء تفردوا بالفوز وتفردت بالخيبة . وهل كنت أقل سفها منهم حتى يفوزوا وأخيب ؟

إن خراب عيادتى فى شارع المدابغ ، وتدهور عيادتي فى شارع فؤاد ، وحياتي المشردة بين القاهرة وباريس وبغداد ، كل أولئك النكبات سَهْدٌ من عزيمتى ، أنا الطبيب المسكين الذى أضاعه الأدب فلم يعد يصلح لغير طب القلوب ، فى زمن خلا من القلوب

* * *

لن أسمح بخروج ليلى ، ولن يراها أحد من أعضاء المؤتمر الطبي بعد الذي سمعت

ولـكن هل كان ما سمعت هو كل السبب فى حماية ليلى من أهل الفضول ؟

الحق أنى مريض بالغيرة . مريض ، مريض لا يرجى له شفاء .

وكان مرض الغيرة خف بعض الخفة فى سنـة ١٩٢٧ ثم عاد فأضرعنى

وتفصيل ذلك أنى جلست أصطبح فى قهوة الروم فى باريس ، فرأيت فتاة فصيحة العينين تجالس رجلاً فانياً ، فأخذت أداعبها بنظراتى ؛ وكنت فتى فصيح العيون يرسل بعينيـه إشارات وخطابات وبرقيات إلى من يشاء ؛ وكانت الفتاة تفهم عنى فتعبس تارة وتبسم تارة وفقاً لسياق الحديث . ورآها ذلك الشيخ موزعة بين الابتسام والعبوس ، فسألها فلم تنكر ، فأشار إلى أن أقترب فاقتربت ، فقال بلهجة صارمة : ماذا تريد ؟

وقد أزعجنى السؤال ، وتخوفت العواقب ، فقد كنت فى كل أدوار شبابى أبغض الذهاب إلى إدارة الشرطة ، ولو لتأدية شهادة ؛ وتلطف الله عزت قدرته فستر عيوبى ، وأعفانى من ذل الاستجواب في مراكز البوليس . تباركت يا إلهى وتعاليت ! فلولا لطفك لأذلتنى شماتة الأعداء

وكنت فى تلك الساعـة أتصور بشاعة الذهاب إلى إدارة التحقيق فاضطربت وتلعثمت

وأعاد الشيخ سؤاله : ماذا تريد ؟ خبرنى ماذا تريد ؟

فجمعت قواي وقلت : سيدى ، أنا شاب من الشعراء ، أنا من سلالة العباس بن الأحنف ؟

فهدأ الشيخ قليلاً وقال: ومَن العباس بن الأحنف ؟ فأجبت: هو الذى يقول :

أتأذنون لصبٍّ فى زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمر السوء إن طال الجلوس به عف الضمير ولكن فاسق النظر

وترجمت له البيتين ترجمة مقبولة فابتسم وقال : ومعنى ذلك أنك تحب أن ترى وجه هذه الفتاة وتسمع صوتها ؟ فقلت : إن سمح سيدى ! فقال : Mais vous êtes mal placé

ففهمت إشارته ودنوت فزاحمت بركبتى ركبة الفتاة

رباه ! متى تعود أيامى !

وأفهمنى الشيخ أنه شاعر سويسرى ، وأنه لا يرجو من هذه الفتاة إلا أن تكون مصدر الوحى . وتلطف فقال إنه يسمح لى بمصاحبتها حين أشاء

فقلت : عفواً ، يا سيدى ، فجيبى يعجز عن تكاليف الحب

فقال : لك الحب ، وعلىّ التكاليف

فأهويت على يده فقبلتها قبلة ما سمحت بمثلها لشيوخى فى الأزهر الشريف

وكانت فرصة عرفت فيها أن الغيرة لها حدود

ولن أنسى ما حييت عبارات ذلك الشيخ الجليل فقد كان يسألنا بعد كل نزهة : ماذا صنعتم يا أطفالى ؟ فكنت أقول مثلا : رأينا پارك سان كلو ، وطربنا لجمال الطبيعة هناك

فيقول : ثم ماذا ؟

فأجيب : ثم رجعنا

فيقول فى ألم وسخرية : وهذا كل ما صنعتم ؟ !

وتفهم الفتاة ما يريد الشيخ فتقول : أؤكد لك يا مولاى أن المسيو مبارك ليس من العقلاء . وكان يدهشنى أن يستريح الشيخ لهذا التصريح فأمضى وأقص ما افترعنا من المغامرات

رباه ! متى تعود أيامى !

ولم يدم هذا النعيم غير أربعة أشهر ، ثم سافر الشيخ والفتاة إلى جنيف ، وعاد مرض الغيرة يساورنى من جديد . وسأكون بالتأكيد من أشرف ضرعاه

ولكن هل تكون هذه الغيرة ضرباً من البلاوة والحمق ؟

لا ، لا ، وإنما هى فيض من المروءة والشرف ، فقد قضيت دهرى وأنا أحقد على من يهينون الجمال . ولهذا سبب معقول ؛ فالمرأة التى تجود عليك بابتسامة يكون من حقها عليك أن تحفظ معها الأدب فى السر والعلانية . والمرأة تعطى كثيراً جداً حين تجود بابتسامة . والعاشق فى جميع أحواله أقل تضحية من المعشوق ، لأن العاشق يأخذ والمعشوق يمنح ، والفرق بين الحالين بعيد . ولكن أين من يفهم المعانى ؟

وقد أهلكنى مرض الغيرة وأفسد جميع شؤونى وكاد يرزأنى بالخراب . ولولا عناية الله لكنت اليوم ممن ينبذهم المجتمع ويتحاماهم الأهل والأقربون

فقد كان لى صديق من كبار الموظفين ؛ صديق فيه شىء من الظرف وأشياء من السخف . وكان هذا الصديق يحب أن يطوف بى على رفيقاته من حين إلى حين ؛ وكنت أعرف ماذا يريد ؟ كان يريد أن أتعلم التسامح لأطوف به على رفيقاتى حين يشاء . وكنت أعرف ما يضمر وأسكت ، لأنى كنت أحب أن أقف على أمراض المجتمع لأعاربها عن علم لا عن جهل

وفى ذات يوم ابتدرنى بهذه العبارة فى لهجة جدّية :

— يا دكتور زكى ، يا حضرة الفيلسوف ، أما تحب أن تعرف رأى إخوانك فيك ؟

— رأى إخوانى ؟ وماذا يرى إخوانى ؟ ما كنت إلا خير صاحب وأكرم رفيق

— أنا ؟ أنا بخيل ؟ وكيف وكان إخوانى يغامرون ماطاب لهم الهوى ، اعتماداً على الجيب الملآن ، جيب الرجل الذى يجوع ليشبع الرفاق ؟

— هم لا يتهمونك بالبخل من الناحية المادية ، وإنما يتهمونك بالبخل من الناحية الغرامية

وعندئذ شمرت بأنى مقبل على خطر فقلت :

— وماذا يريد إخوانى ؟

— يريدون أن تطوف بهم على رفيقاتك

فقلت : ليس لى رفيقات

فقال : يا سيدى ، ياسيدى ، على منطق الدكاترة !

فقلت : أؤكد لك ولسائر الإخوان أنى لا أعرف غير الكتاب والقلم والدواة والقرطاس

فقال : تعجبنى حين تتخذ من حياتك العلمية ستاراً لحياتك الغرامية !

فقلت : أنحداك أن تذكر اسم امرأة واحدة يتصل بها غرامي

فقال : هل تنكر أن لك علاقات مع السيدة (...)

ونطق السفيه المجرم باسم امرأة مصونة أفديها بروحى . فلطمته لطمة أطارت ما كان وقع على صدره من أعربة الأحلام والأمانى

فنظر إلى فى تخاذل وقال : وَحْش !

فقلت : ولا يؤدب الأوباش غير الوحوش

وأراد أن يجمع ما تناثر من أشلاء شجاعته ليقابل العدوان بالعدوان ، فنظرتُ إليه نظرة ساخت بها روحه ، فانصرف وهو يقول: طوّل بالك !

وقد طوّلت بالى ، وكنت أتوقع أن يعود بعد ساعة أوساعتين وفى يده مسدّس ، ولكنه لم يعد أبداً

ثم عرفت بعد حين أنه انتقم منى على طريقة أمثاله من الأنذال ، فكان يرسل الخطابات المجهولة إلى الدوائر التى يؤذينى أن أذكر عندها بالقبيح ، فتلطخت سمعتى بالمنكرات فى أقل من أسبوعين

رباه ! ماذا نعاني فى سبيل المروءة والشرف ؟

ومشيت يوماً فى شارع فؤاد أروّح عن نفسى قليلاً برؤية اللؤلؤ المنثور ، اللؤلؤ الذى يتوهج بذلك الشارع في الأصائل والعشيات ، فلقينى صاحب قديم فقلت : من أين قدمت ؟

فقال : كنت فى منزل (... باشا)

فقلت : وكيف حاله ؟ فقد طال شوقي إليه

فقال : لم أجده فى المنزل ، وإنما جلست مع زوجته لحظة ، جلسة بريئة بالطبع

فنظرت إليه نظرة ساخرة وقلت : أتريد أن توهمنى أنك كنت تملك الفجور وعففت مع أنك أضعف من الخصيان ؟

وخلاصة القول أنى أتهم المجتمع ، وأرى من النذالة أن نعرض بناتنا وأخواتنا وزوجاتنا للناس . ولا يضايقنى أن يغضب صديق الدكتور إبراهيم ناجى وهو يكرر كلمة المرحوم زكي باشا إذ قال : إن زكى مبارك عاش فى باريس ما عاش وظل مع ذلك فلاحاً من سنتريس

نعم ، فلاّح ، ثم فلاّح ، فان شاء أبنائى أن يثوروا على أبيهم الفلاح فليحملوا إن استطاعوا رذائل المجتمع . أما أنا فقد نجوت ولله الحمد ، فكانت زوجتى ترفض أن تستقبل أخاها الشقيق وأنا غائب . ويسرنى أن أسجل اعترافى بالجميل لزوجتى الفلاحة التى سارت سيرة أمها وجداتها فحفظت قلبى سليما من الهموم التى تزلزل عزائم الرجال

وإذاً فلن تخرج ليلى ولن يراها أعضاء المؤتمر الطبى

كذلك صممت ولن أرجع عما صممت

* * *

ومضيت إلى دار المعلمين العالية فإذا خطاب بالبريد الجوى وعلى غلافه :

« وزارة المعارف العمومية »

« مكتب الوكيل »

وزارة المعارف ومكتب الوكيل ؟ وبالبريد الجوى ؟

يا فتاح يا عليم !

أتكون وزارة المعارف أرادت أن ترجعنى إلى مصر للتفتيش بالسنة التوجيهية والعياذ بالله ؟

أتكون وزارة المعارف فكرت فى الغاء انتدابي لمداواة ليلى المريضة فى العراق ؟

ومرّت بالبال خواطر كثيرة ، إلا خاطراً واحداً ، هو أن تكون وزارة المعارف فكرت فى تسديد ما عليها من الديون . وهل فى الدنيا إنسان يبادر بتسديد ما عليه من ديون بلا طلب وبلا إلحاح ؟ إن ديونى على وزارة المعارف ديون ثقيلة ؛ ولن تدفعها إلا يوم يشهد معالى الوزير أو سعادة الوكيل بأننى رجل مظلوم لن يصل إلى مناصب تلاميذه إلا بعد أعوام طوال

ثم تشجعت وفضضت الخطاب فإذا سعادة العشماوى بك يخبرنى بأنه قادم مع أعضاء المؤتمر الطبى ، وأنه يسره أن يرانى وأن يرى المصريين المقيمين بالعراق

ولكن لماذا اختصني سعادة العشماوى بك بهذا الخطاب ؟

أغلب الظن أن يكون بعض الدساسين كتب إليه أنى لا أؤدى الواجب فى خدمة ليلى ، فهو يريد أن يرى بعينيه ما صنعت فى خدمة ليلاى

وإذاً فسيكون من الحتم أن تخرج ليلى لحضور حفلة الافتتاح فما هذه المشكلات التى تثور فى وجهى من حين إلى حين ؟

من حق العشماوى بك أن يرى ليلى ، ومن حق أن أحجب عنه ليلاى

وأشهد أنى قضيت يومين فى درس هذا الموضوع الخطير . وكنت لا أعرف بالضبط : هل أغار على ليلى ؟ أم أخاف على العشاوى بك ؟ والحق أني أغار على ليلى وأخاف عليه ، أما غيرتى على ليلى فهى مفهومة لا تحتاج إلى شرح ؛ وأما خوفى عليه فيرجع إلى اعتقادى أنه من أرباب القلوب . وربما جاز لى أن أصرح بأنه كان من عبيد الجمال فى صباه ؛ وإلا فكيف اتفق أن يكون داعماً من أنصار الآداب والفنون ؟ وهل يعطف على الأدب والفن غير أرباب القلوب ؟

* * *

ثم مرّ بالبال خاطر سخيف ؛ ولكن لا بدّ من تدوينه فى هذه المذكرات . ألم أقل أنى أدوّن عيوبى قبل أن يدوّنها الكرام الكاتبون ؟

أنا مفتش بوزارة المعارف المصرية ؛ ومن واجبى نحو نفسى أن أحسّن علاقاتى بوكيل الوزارة . أستغفر الله ! فما أردت إلا أن أقول سعادة الوكيل . ولا تؤاخذنى يا عشاوى بك فما أقصدك بالذات . وسعادة الوكيل يستطيع أن يكتب مذكرة يقول فيها إنه ثبت أن مواهب الدكتور زكى مبارك أعلى من مستوى التفتيش ، وإنه لا بدّ من تحويله إلى منصب مناسب بالجامعة المصرية

وهنا وجه الخطر ، فمناصب الجامعة لا تنفعنى ، لأنى لا أستطيع أن أشفي بها ما فى نفسى من مرض السيطرة ، لأن السيطرة فى الجامعة مقصورة على العمداء ، والظروف الحاضرة لا تمنحنى العمادة ولو فى كلية الآداب ، لأن العمادة تتوقف على شرطين : أصوات الأساتذة ، وموافقة الوزير . والأساتذة لن يعطونى أصواتهم أبداً ، لأنى جرحتهم جميعاً فى جريدة البلاغ ؛ والوزير الحاضر وهو معالى بهى الدين بركات باشا لن ينسى أنى هجمت عليه فى مقال نشرته بجريدة المصرى . ومن المحقق أنه لن ينتقم منى ، ولكن من المحقق أيضاً أنه لن ينحمس لإنصافى فيرانى أصلح الناس لمنصب العميد

لا بدّ لى على أى حال من أن أبقى مفتشاً بوزارة المعارف . وهل فى الوزارة منصب أعظم من منصب المفتش ؟ إن لى فى هذا المنصب ذكريات تقضى بأن أخاطر فى سبيله بكل شىء إلا ليلى ، إلا ليلى ، إلا ليلى

منصب المفتش منصب عظيم جداً ، فمن كان فى ريب من ذلك فليسمع :

دخلت المدرسة التوفيقية صباح يوم ، فهالنى أن أرى مظاهر القلق فى جميع الصفوف ، فقلت للناظر : ما هذه الجلبة ؟ فقال : إن التلاميذ يتطلعون من النوافذ ليتمتعوا بأنظارهم بطلعة سعادة المفتش . فقلت فى تعجرف : هذا أدب ما بعد الحرب ، وكان الواجب أن يقهرهم الخشوع . فقال الناظر : الرأى لك يا سعادة المفتش !

وقد عزّ علىّ أن يجاملنى الناظر إلى هذا الحد ، مع أنه أكبر منى سناً وعلماً ، ولكن ماذا أصنع وأنا لا أخلو من لؤم ، ومن حق أن أستفيد من فساد المجتمع ؟

ودخلت يوماً المدرسة الإبراهيمية فوجدت مدرساً كان من زملائى . وكان فيما أذكر أبصر منى بالدقائق النحوية والصرفية واللغوية ، فأبيت إلا أن أتعجرف عليه وأستطيل . وجدته يطلب من التلاميذ أن يتكلموا عن فوائد السينما ، فقلت : لماذا لا تقول الخيالة ؟ ورأيته يمرّ على كلمة « تطوّر » فى دفاتر التلاميذ فلا يصححها ، فحاسبته أشد الحساب فقال : إن الله يقول فى كتابه العزيز « وخلقناكم أطواراً » فقلت : نعم إن الله خلقنا « أطواراً » ومن أجل ذلك لا يصح أن « نتطور » يا أستاذ !

وقد هدانى اللؤم إلى أن أقترح على وزارة المعارف أن تعهد إلىّ التفتيش فى المدارس الأهلية والأجنبية ، لأن التفتيش فى مدارس الحكومة يضايقنى قليلا ، إذ كان المدرسون فى المدارس الثانوية قد ثبتت صلاحيتهم للتدريس منذ سنين ؛ وأمثال هؤلاء لا يمكن قطع أرزاقهم بسهولة . أما المدارس الأجنبية والأهلية فيمكن فيها زعزعة مركز المدرس بإشارة أو إشارتين ؛ وكذلك أستطيع السيطرة بلا عناء

ومن مزايا التفتيش أن يحفظ التلاميذ أشعارى بفضل « لباقة » المدرسين . وأذكر أنى دخلت يوماً إحدى المدارس فأردت أن أختبر الطلبة فى المحفوظات ، فرأيت تلميذاً قيل إنه ابن وزير سابق . فقلت : أسمعنى يا شاطر بعض ما تحفظ ، فابتدأ يصيح :

قال سعادة الدكتور زكى بك مبارك :

يا جيرة السين يحيا فى مرابعكم
فتى إلى النيل يشكو غربة الدار
جَنَتْ عليه لياليه وأسلمه
إلى الحوادث صحبٌ غير أبرار

فخشيت التورط فى سماع شعرى فأشرت على الطالب بأن ينشد شعراً غير هذا ، فصاح :

وقال سعادته أيضاً :

نسيتم العهد واسترحتم من لوعة الحافظ الأمين

فأسكت الطالب وقلت للأستاذ : أليس لدى الطلبة محفوظات غير أشعار زكي مبارك ؟

فقال : لقد أعطيتهم خمس قطع من أشعار زكى مبارك وثلاث قطع من أشعار على الجارم ، فحفظوا شعرك وصعب عليهم حفظ شعر الجارم

فقلت : هذا عجيب ، مع أن شعر الجارم لا بأس به !

وأنا موقن بأن الطلبة والأساتذة يسخرون منا ، ولكن ما الذى يمنع من أن نستفيد من فساد المجتمع ؟

* * *

والتفتيش سيكون قنطرة لعضوية المجمع اللغوى . ولكنه لن يكون كذلك إلا إذا عرفت كيف أستفيد . وأنا قد عرفت ، ولله الحمد . وهل من الصعب أن أجلس فى مكتب تفتيش اللغة العربية ثم أنقد تقارير المدرسين ؟ جاءنى يوماً تقرير من الأستاذ الأول فى مدرسة أسيوط الثانوية ، فأخذت التقرير إلى البيت ، وكتبت تقريراً بما فى التقرير من أغلاط لغوية ، ورجعت في اليوم التالى فحدثت جميع الموظفين بهذه الفضيحة ، فلم ينقض اليوم إلا وأنا عمدة المحققين ، وجهبذ المدققين

وكنت نسيت الموضوع الأصيل الذى كُتب من أجله ذلك التقرير ولكن لم يسألنى أحد ماذا فيه

وربما كانت مدرسة أسيوط الثانوية لا تزال تنتظر رأى الوزارة فى موضوع ذلك التقرير إلى اليوم ، والصبر طيِّب !

وكان لى أسلوب فى مضايقة المدرسين ، أسلوب بديع ؛ ولكنى لم أبتكره مع الأسف ، وإنما ابتكره شيوخٌ لنا من قبل . كنت آخذ كراريس التلاميذ إلى البيت ، وأدرس موضوعاً واحداً من كل كراس . أدرسه بدقة وأمامى المعاجم والمراجع لأبين ما فات المدرسين من أغلاط ، وأنسى أن المدرس لا يستطيع أن يستثير المعاجم فى كل كراس . ولكن ماذا يهمني ؟ المهم أن يشيع فى بقاع الأرض أنى محقق مدقق لأكون خليفة العوامرى بك على الأقل ، وذلك مغنم ليس بالقليل ، وهو بفضل هذه الحذلقة مضمون

ومن عادتى أن أدعو المدرسين الذين أفتش عليهم « للتفضل » بانتظارى فى المدرسة بعد خروج التلاميذ ، وأكون تغديت وأخذت نصيبى من القيلولة ، ويكون هم قد اكتفوا بما تيسر من الشطائر الجافة ، وقضوا الوقت فى التحضير والتصحيح ، وتكون النتيجة أن أقدم عليهم بعافية ، وأن يتلقونى وقد نال منهم الاعياء ، فأرغى وأزبد ماشاء التعسف ، ويصدهم التعب عن درء الشر بالشر فيسكتون

* * *

قلت إنى أفضل المدارس الأهلية والأجنبية على المدارس الأميرية لأستطيع قطع الأرزاق حين أشاء . ثم تبينت وأنا راغم أن الأرزاق بيد الله ، وأنى لا أملك إيذاء مخلوق ، وأن اللؤم الذى تنطوى عليه نفسى لن يضر أحداً غيرى ، فقد ذهبت للتفتيش على المدرسة المرقسية بالأسكندرية . ذهبت إليها فى يوم مطير يحبس موظفى البنوك فى البيوت . وكان أهم ماصنعته فى ذلك اليوم أن أعدّ الغائبين ، ثم كتبت إلى الوزارة تقريراً مزعجاً أقول فيه إن المواظبة منعدمة فى المدرسة المرقسية ، وإن ستة أسباع التلاميذ كانوا غائبين يوم حضرت للتفتيش

وما كان الغائبون (ستة أسباع) ولكني رأيتها كلمة لم يكتبها أحد من قبل . وما فضل التجديد إن لم أبتكر بعض التعابير ؟

وقد أرسلت الوزارة تستجوب المدرسة ، فكتبت إدارة المدرسة إلى الوزارة أن اليوم الذى غاب فيه التلاميذ كان يوماً مطيراً عاصفاً ، وأن الزوابع هدمت بعض مبانى الشاطئ وأغرقت ثلاث سفائن ، وأن حضرة المفتش يعرف ذلك ويذكر أنه تزحلق ثلاث مرات فى الطريق ، وأن منظره فى ذلك اليوم كان يخلق الإشفاق فى أقسى القلوب

ودعانى وزير المعارف يسألنى ، فقلت يا معالى الوزير : أنت تعلمت فى فرنسا وزرت جميع الممالك الأوربية . فهل رأيتهم يرون المطر من الأعذار ؟ والأسكندرية كلها مرصوفة الشوارع ، ومن الواجب أن نشدد فى المواظبة لنخلق فى الجو المدرسى طوائف جديدة من التقاليد

ويظهر أن الوزير استراح إلى تذكيره بأيام الشباب فى فرنسا

واستظرف كلمة التقاليد فقال : أحسنت أحسنت ! ويشهد الله أني لم أكن يومئذ من المحسنين

أما التفتيش فى المدارس الأجنبية ففى فيـه نوادر تضحك الثواكل ، وربما جاءت مناسبة لسردها فى هذه الذكرات

والحاصل ـ كما يقول أهل بغداد وكما كان يقول الأزهريون ـ الحاصل أنى أريد التلطف مع سعادة العشماوى بك لأبقى مفتشاً وأنتقم من المدرسين الذين يهمّون بنقد مؤلفاتى وأشعارى فى الجرائد والمجلات

وهو سيسأل عن ليلى ، فلا بأس من أن يرى ليلى . وما أظنه سيخطفها من يدى ، ولـكن مرض الغيرة تعاودنى أعراضه من حين إلى حين

* * *

وشاع فى أروقة وزارة المعارف أن العشماوى بك حضر قبل الموعد ، فمضيت للبحث عنه فى فنادق بغداد فعرفت أنه لم يحضر . فتمنيت لو أسمع أنه عدل نهائياً عن الحضور مع شدة الشوق إليه

وفى مساء اليوم التالى سألت فعرفت أنه فى المفوضية المصرية ، فذهبت للسلام عليه فاستقبلني بالعناق ، فعرفت أن الشر الذى ساورنى كان من أوهام الظنون

وبعد لحظة دعانى إلى حديث خاص فقلت : لعله خير . فقال: كيف حال ليلى ؟ لا تكتم عنى شيئاً ، فليس لك فى وزارة المعارف صديق أخلص منى . إنهم يشيعون فى مصر وفى العراق أنك لا تخدم ليلى بإخلاص ، فهل هذا صحيح ؟

فقلت : إنك تعلم يا سعادة الأستاذ أنى لا أملك غير ذخيرة الإخلاص . وقد بذلت فى سبيل ليلى مابذلت ، وعند الله جزائي

فقال : هذه مسألة هينة ، وسيحكم فيها المؤتمر الطبى

فقلت : أى مؤتمر يا مولاى ؟

فقال : المؤتمر الذى نظمته الجمعية الطبية المصرية لمعاونتك على مداواة ليلى المريضة فى العراق

فقلت : وإذا كانت ليلى لا تريد أن ترى أحـداً غيرى من الأطباء ؟

فقال : ليس الأمر إلى ليلى ولا إليك ، فقد تكونان عاشقين يطيب لـكما الاستشهاد فى الحب . ويجب أن تفهم أن الحـكومة لا تقبل أن يتحول الجد إلى مزاح

وارتفع صوت العشماوى بك ، فأقبل عزام بك يسأل عما بيننا من خلاف . فلخصت القضية فقال : ومَا الذى يخيفك من أعضاء المؤتمر الطبى ؟

فقصصت عليهما ما سمعت فى فندق استوريا . فتأثر العشماوى بك وقال : الحق معك يا دكتور زكى . ولـكن ماذا أقول حين أرجع إلى مصر وليس معى وثيقة رسمية عن صحة ليلى ؟

وهنا ظهرت البراعة السياسية لوزير مصر المفوض فى العراق فقال : تحضر ليلى حفلة الافتتاح وهى متنكرة فى زى امرأة حضرية عرفت أزياء باريس ، ويسلم عليها سعادة العشماوى بك نائباً عن وزارة المعارف ، وفضيلة الشيخ السكندرى نائباً عن المجمع اللغوى ، وسعادة الدكتور على باشا إبراهيم نائباً عن الجامعة المصرية ، وبذلك ينفضّ الإشكال

* * *

ومررت على فندق مود فرأيت جماعة من الأطباء يتحدثون عن آمالهم فى مشاهدة ليلى فقلت : موتوا بغيظكم إن كنتم صادقين

وتلفتّ فرأيت بهو الفندق يموج بكرام العراقيين الذين جاءوا للتسليم على العشماوى بك ومن بينهم أصحاب السعادة طه الراوى وساطع الحصرى وتحسين ابراهيم وابراهيم حلمى العمر فحدثتهم بما وقع بينى وبين سعادة العشماوى بك فقالوا : الرأى رأيك فى هذه القضية ، فأنت وحدك طبيب ليلى المريضة فى العراق ، ونحن لا نشير أبداً بتعريض ليلى لأعين الناس ، ولو كانوا أطباء

إلى هنا سارت الخطوات بسلام

فما الذى سيجدّ فى أيام المؤتمر ؟ ما الذى سيجدّ ؟

لطفك اللهم ورحمتك ، فان قلبي يحدثنى بأنْ ستقع غرائب يشيب لها مَفْرَق الوليد . قلبي يحدثنى بأنى مقبل على أيام تموج فيها الفتن والمعاطب ، وما كان قلبي من الـكاذبين

بغداد ، بغداد !

خذى برمامى ، فأنا فى يمناك طَيِّعٌ ذَلول . وليكن مايكون . فانى واثق بأن الله لن يفضح الشاعر المخلص الأمين

« للحديث شجون »

زكى مبارك